بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ للمتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيد . هذا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ خشِيَ ٱلرَّحْمٰنَ بالْغَيْبِ وجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ. ٱدْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ ٱلْخلود لَهُمْ مايَشَاءُونَ فيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[قَ : الآيات ٣١ ـ ٣٥]

من فضائل القرآن على اللغة العربية أنه أخذ من ألفاظها الجارية وأعطاه معانى جديدة نبيلة ، وبعثها بذلك بعثاً جديداً ، كما ترى فى ألفاظ الصلاة والزكاة والتقوى والتشهد ، وصاغ ألفاظاً جديدة من أصول قديمة كالجنة والبعث والنشور والآية والسورة ولفظ القرآن نفسه ، ومن هذا كله ومن غيره تكونت لغة القرآن ، ونشأ ما يسمى بالألفاظ القرآنية ، وهى الألفاظ ذات المعانى الدينية والإيمانية التى لا توجد إلا فى القرآن ، فإذا استعملت فى غير القرآن عادت إلى معانيها العادية الأولى كالحساب والرباط والوحى والهوى والسريرة والعزة واليقين .

ومن هذه الألفاظ حروف ارتفعت عندما دخلت القرآن وأصبحت لها معان شريفة ، ومن ذلك « لدن » ومعناها عند ، ولكنها تأخذ مقاماً رفيعاً فى مثل قوله تعالى : ﴿ **كتابٌ أحكمت آياته ثم فُصِلت من لدن حكيم خبير** ﴾ [هود ١١/ ١] وقوله تعالى ﴿ **ربنا آتنا من لدنك رحمةً وهيِّئ لنا من أمرنا رشداً** ﴾ [الكهف ١٨/ ١٠] وقوله : ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ [النساء ٤/ ٤٠] ، ومن هنا جاء تعبير « العلم اللدنى » ذو المعنى الرفيع .

ومن هذه الألفاظ القرآنية لفظ القلب وجمعه القلوب ، فإن له فى القرآن الكريم معانى عظيمة من بينها « الضمير » فى مثل قوله تعالى : ﴿ **يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ . إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليمٍ ، وأُزلفت الجنة للمتقين** ﴾ [الشعراء ٢٦/ ٨٨ ـ ٩٠] وقوله سبحانه : ﴿ **أفلا يتدبّرونَ القرآن أم على قلوبٍ أقفالها** ﴾ [محمد ٤٧/ ٢٤] .

وأمثال هذه الآيات تضع أيدينا على سر من أسرار الإسلام عظيم ، وهو أنه دين القلوب ، حقا إن للضمير مكاناً عظيماً فى النصرانية واليهودية ، ولكن القسس والكواهن هناك هم الذين يقومون بتنبيه الضمائر وإيقاظ القلوب ، لأنهم هم الواسطة بين المؤمن وربه ، وهم الرقباء على الناس ، وفى الكاثوليكية يقوم القس بدور الضمير للمؤمنين ، فإذا ارتكب واحد منهم خطيئة واعترف بها للقس فإن للقس القدرة والسلطة على إعفائه منها ، وهذه السلطة لا تأتيه من الله ، بل من الكنيسة ، وعلى رأسها البابا الذى يقوم بدور الضمير للجماعة كلها وهو مفوض فى منح المغفرة والبركات للمؤمنين ، بل إن له سلطة الحرمان من رحمة الله . وفى صراع البابوات مع الأباطرة على السلطان الدنيوى استعمل البابوات هذا السلاح ، فأصدروا قرارات بحرمان خصومهم السياسيين من رحمة الله وطردهم من الكنيسة ، وهى ـ أساساً ـ جماعة المؤمنين ، بل استعمل البابا

هذا السلاح مع قس لا شك فى إيمانه المسيحى ، وهو مارتن لوثر .

لا شىء من هـذا فى الإسلام ، فأنت مسئول عن نفسك وأعمالك أمام الله سبحانه بلا واسطة ، والرقيب الأكبر عليك هو قلبك أو ضميرك ، فأنت وحدك تعرف حقيقة نفسك وما فيها ، وأنت تعرف أن الله يعرف ما فى نفسك ، فأنت لا تستطيع أن تكذب على نفسك ولا على الله ، وهذا هو القول الفصل ومقطع الحق فى الإسلام .

وللحارث المحاسى كلام بديع عن القلب والإيمان فى كتاب « الرعاية لحقوق الله ، وكذلك لأبى طالب المكى فى كتاب « قوت القلوب » ، أما أحسن من تحدث عن القلب والقلوب والإيمان فهو الإمام أبو حامد الغزالى فى « الإحياء » وغيره من كتبه الصغار ، وخاصة « كيمياء السعادة » و « مشكاة الأنوار » .

وكان الهم الأكبر لرسول الله ﷺ أثناء بعثته ورسالته فى مكة ، ثم فى المدينة هو إحياء قلوب الناس ، وتوفيقه الأكبر هو نجاحه فى تحويل أمة الإسلام إلى قلب نابض وضمير حى ، وهو صلوات الله عليه ، لم يقصد قط إلى أن يكون رقيباً على الناس ، وإنما كان مثالاً على يقظة الضمير وتقوى القلوب ، وكان الصحابة من حوله يرون كيف يتعبد وكيف يعامل الناس وكيف يراقب ربه ، والسعداء منهم هم الذين وصلوا إلى قرب مستواه من يقظة القلب ، وانظر إليهم كيف أصبحوا من حوله ضميراً حياً يتحرك ، والواحد منهم يحاسب نفسه ويراقب ربه ، انظر إليهم ، كيف كانوا يشتركون معه فى بناء مسجد الرسول ويتنافسون فى ذلك وهم يغنون وينشدون ، وكيف ساروا معه إلى بدر وهم قطعة من الضمير الحى ، ورسول الله يرقبهم ويدعو الله ليؤيدهم ، لأنه يعرف أن إيمانهم أيقظ قلوبهم ، فأصبح الواحد منهم بمائة من البشر . وقد كان ينبغى أن

نستمر فى طريق القلوب هذا حتى تظل أمة الإسلام قوية فى صدر الأمم ، وإذا رأيت أننا تزحزحنا عن مكاننا فى صدر الأمم فاعلم أننا لابد أن نكون قد فقدنا ميزة المسلم الكبرى ، وهى حياة الضمير ويقظة القلب ، لأن الله سبحانه لا يرعى إلا أمة الضمير والقلوب .

وإذا كنت من أولئك الذين يعنيهم أمر هذه الأمة ، ويحيرهم ماهى فيه من تفرق واختلاف رأى وقلة توفيق ، فاقرأ قول الحق سبحانه فى سورة الفتح :

﴿ إِنَّ الَّذِين يُبايِعونك إِنما يُبايعونَ الله يدُ الله فَوق أيديهِمْ فمن نَّكث فِإنما ينكُث على نفسِه ومن أَوفى بِما عاهَد عليه الله فَسَنُؤْتِيهِ أجراً عظيماً . سيقول لك المُخلفونَ من الأعرابِ شَغَلتنا أموالُنا وأهلُونا فاستَغفِرْ لنا يقولون بِألسنتِهم ما ليس فى قلوبِهم قُل فمن يملِكُ لكم مِن الله شَيئاً إِن أراد بكم ضراً أو أراد بِكُم نفعاً بل كانَ الله بما تعملونَ خبيراً ﴾.

[الفتح ٤٨/ ١٠ ـ ١١] .

فهنا ترى صورة ناس مثلنا شغلتهم أموالهم وأهلوهم عن الخروج مع المسلمين للجهاد ، ففسدت ضمائرهم ولم يعودوا يستحقون عون الله ، لأنهم خرجوا عن أمة الضمير والقلوب ، فأصبحوا ناساً من الناس لا يستحقون عون الله ورعايته ، وذلك هو مانحن فيه من قرون طويلة منذ فقدنا صفاء الضمير .

ذلك أن الإسلام هو دين الضمير الحى والقلب السليم ، والذى فعلته أمة الإسلام يوم صحا قلبها فى ظلال رسول الله والخلفاء الراشدين من بعده لا يصدق ، فقد كان رسول الله يرى أن قوة الأمة فى يقظة قلبها أى ضميرها ، فكان لا يهوله شىء ولا يستكثر على أمته شيئاً ، لأنه كان يرى المؤمنين من حوله ضمائر حية يشعرون بواجبهم ويقومون به دون أن ينبههم هو إليه ، ونحن نعرف القوة العسكرية التى وصلت إليها أمة الإسلام أيام الرسول ، ولكن الذى لا

نعرفه هو تحول المدينة العظيم خلال السنوات العشر التى قضاها فيها الرسول ، فقد تضاعف سكانها فوق المرات الأربع ، وزادت فيها الأراضى الزراعية حتى كفت المدينة نفسها بنفسها من عمل أيدى أفرادها ، وأنشئت الطرقات والشوارع والجسور على وديان الماء فيها ، وقامت المساكن على جوانب الطرق ! ونشأت فى المدينة سوق عظيمة على الطريق المبلط الممتد من مسجد رسول الله ﷺ إلى جبل سلع ، وفى هذه السوق كان أهل المدينة يجدون كل ما كان يحوجهم من طعام وآنية وسلاح ، وكان الناس يتبايعون بأمانة وصدق ، وكانت معظم بيوعهم مبادلة ، وكانت مغانم المغازى كثيرة ، وكل المسلمين كانوا جنوداً مجاهدين ، فالرجل يغنم فى الغازية ناقة أو شاتين ، فيذهب إلى السوق ويشترى السيف والآنية دون مشاحة ، فكل واحد يعرف قدر ما بيده ولا يطالب بأكثر منه ، وإذا وقع خلاف حمله الناس إلى رسول الله فيقضى فيه بنفسه أو يتركه لعلى بن أبى طالب أو أبى بكر ، ويعرض عليه قضاء الصحابى ، فكان يقره فى الغالب لأنه كان يعرف أن معظم من حوله من رجال أمة الإسلام يتصرفون عن قلوب حية ، وكتب الحديث والآثار النبوية حافلة بالأقضية والأحكام ، وهذه الأحكام هى الأساس الذى قام عليه قضاء المسلمين فيما بعد ، لأنها كانت أحكاماً سليمة صادرة عن قلوب صافية لأنها مؤمنة .

ولم يكن فى أمة الإسلام أيام الرسول جهاز إدارى ، فبيت المال شىء بسيط بيد بلال الحبشى ، وهو يتصرف فيما تحت يده بحسب ما يرى أحياناً ، ولكنه كان يطلع الرسول على كل ما يعمل ، ولم تكن هناك دفاتر أو دواوين ، ولكن كل شىء كان واضحاً ، وكانت الأمة تملك ألوف الأنعام ترعى فى الأحماء (جمع حمى) والحمى مساحة من الأرض يخصصها الرسول أو خليفة من بعده لأنعام الأمة التى تتحصل لها من المغازى ، ولم يكن يحرس الحمى الطويل العريض إلا ثلاثة رجال أو أربعة ، فإذا أغار نفر من البدو على الحمى وسرقوا شيئاً مما فيه

نفرت الأمة كلها فى الطلب ، وكان رسول الله ﷺ يقود أحياناً تلك المطاردات ، والمؤمنون من حوله ينافسون فى الإخلاص والحمية ، فهذا مال الجماعة وهو ما لهم ، لأن الأمة كانت قوة واحدة وضميراً واحداً ، وفى مدى يومين أو ثلاثة على الأكثر تكون الأمة قد استردت ما سرق منها أو معظمه ، ثم ينصرف كل مؤمن إلى حياته بعد أن أدى واجبه نحو أمته . والأعراب الذين تذكرهم الآية غابت عنهم هذه الحقيقة ، لأن قلوبهم لم تصح بعد ، وما فى قلوبهم غير ما تجرى به ألسنتهم ، واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَم تَرَ أن الله أنزلَ من السَّماء ماءً فسلَكَه ينابيعَ فى الأرضِ ثمَّ يُخرجُ بِه زرعاً مُختلِفاً ألوانُهُ ثم يهيجُ فتراهُ مُصفراً ثم يَجعلهُ حُطاماً إن فى ذلك لذِكرى لِأولِى الألبابِ . أَفَمَن شَرَحَ الله صدره للإسلامِ فهو على نورٍ من ربِه فويلٌ للقاسِيَة قلُوبُهُم من ذكرِ الله أولئِك فى ضلالٍ مُبينٍ ﴾ .

[الزمر ٣٩/ ٢١ـ٢٢].

فهناك ترى كيف يجمع الله بين الماء الذى ينزله من السماء فيجرى فى باطن الأرض ، ثم يخرج الله به زرعاً مختلفاً ألوانه ، والذى شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، وهذا النور ينير القلب ويبعث صاحبه على العمل الصالح ، فيقبل عليه وينتفع بماء الينابيع ليخرج النبات الذى ينفع الناس ، ثم يذبل مابقى من النبات ثم يجف ويكون حطاماً ، وهذه الحطام تعود إلى الأرض لتتحول إلى نبات آخر بإذن الله ، فهكذا يكون قلب المؤمن الصاحى المتيقظ بذكر الله ، فهو يعمل ويزرع ويخرج الخيرات لنفسه وللآخرين ، أما القاسية قلوبهم ، أولئك الذين لم تستيقظ قلوبهم ، فهم بعيدون جداً عن هذا النور وهم فى ضلال مبين

وفى هذه الايات ترى قوة الإسلام الكبرى ومعناه العظيم ، فهو قلب حى

وضمير يقظ ونفس صافية ، وهو لهذا قوة وعمل وخير وعلم ، وأنت ترى أن الله لا يذكر العمل فى هذه الآيات لأنه مفروض ، فالمسلم الصالح مسلم عامل ، وعمله صادر عن قلب واع ، فهو يدرس ويبحث ويفكر ويتنبه أثناء ذلك إلى ما فيه خيره وخير أمة الإسلام معه ، وانظر إلى أمة الإسلام فى واقعة الأحزاب فى السنة الخامسة للهجرة ، وعندما اجتمعت قريش وغطفان وأسد وغيرها من القبائل وسارت جحفلاً لجباً للقضاء على أمة المدينة ، واهتدى سلمان الفارسى إلى فكرة الخندق ، ووجد الرسول فيها خيراً فدعا المسلمين للمبادرة إلى العمل ، وتدارسوا خطة الخندق ، وشرعوا فى حفر الخندق ، وأقبل الرسول يعمل معهم بيده ، وخطة الخندق تتطور مع العمل ، فوجدوا أن بعض جوانب المدينة محصنة بالبيوت ، وكل ما ينبغى هو تشبيكها أى سد الفراغات بينها ، ووصل الأعداء ليجدوا أنفسهم أمام شىء لم يكن يخطر لهم على بال ، وخطر لبعضهم أن يطفروا الخندق بالخيل ، وطفروا فعلاً ليجدوا أن القوة الحقيقية ليست فى الخندق بل فى الأمة التى وراء الخندق ، فهى أمة صاحبة يقظة ، وهذا رسول الله قائم فى قبته إلى جانب جبل سلع ، وأبو بكر فوق الجبل يرقب قوات الكفار وينبه المسلمين ، والمسلمون أصبحوا فرقاً مقاتلة تطوف بأجزاء حددت لهم من الخندق ، وإذا تبين أن هناك جزءاً من الخندق لابد من توسيعه تم ذلك أثناء الليل ، وهناك قوتان طيارتان إلى جانب قبة الرسول ، يقود إحداهما عباد بن بشر ، والثانية محمد بن مسلمة ، والاثنان من أسود الأمة ، ورسول الله لا يكاد ينام من الليل ساعة حتى توقظه هيعة فينهض ويرد الأعداء ، ثم يعود إلى خيمته ليستريح ، وجماعة من فرسان الأعداء تقفز فوق الخندق فيتصدى لها على بن أبى طالب ونفر من المؤمنين معه ، وينقلب الأعداء عائدين ، وواحد منهم يرتطم فى الخندق فيهبط رجل من المؤمنين يقتله فيه ، وتهب الرياح العاتية ويشتد البرد والأعداء يعانون من ذلك ، ولكن المؤمنين لا يكادون يشعرون به لأن

قلوبهم مستيقظة للعمل العظيم ، وبعد نحو أسبوعين من هذه المعركة الحامية يتبين أبو سفيان صخر بن حرب أن ولوج هذا العرين مستحيل ، فهذه أمة حية باعت نفسها لله ، ثم إن عيينه بن حصن الفزارى شيخ غطفان لم يقدم ليخوض معركة طويلة المدى ، فهذا شيخ قبلى بدوى يريد أن يضرب ضربة يوم ويفوز هو وقومه بما تصل إليه أيديهم ثم يعودون إلى منازل قبيلتهم ، فأما وهذه الغاية لم تتحقق فهو يجمع رجاله ويكر راجعاً ، وكذلك تفعل القبائل الأخرى ، ويظل أبو سفيان وحده مع كفار قريش ولا يجدون مندوحة عن الانصراف بأقل من خفى حنين ، وقبل انصرافه عائداً إلى مكة والغيظ يملأ قلبه كتب إلى رسول الله « باسمك اللهم فإنى أحلف باللات والعزى لقد سرت إليك فى جمعنا وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا ؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد ، تبقر النساء » وبعث بالكتاب مع أسامة الجشمى ، فاستدعى رسول الله ﷺ ، أبى بن كعب وأملاه « من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب . أما بعد فقديماً غرك بالله الغرور ، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم وأنك تريد أن تستأصلنا ، فهذا أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك من علمك الذى صنعنا من الخندق فإن الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنا بالراح ، وليأتين يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل ، حتى أذكرك ذلك » (مغازى الواقدى ٢/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤) .

فهذه أمة صاحية القلب يقظة الضمير ، أفرادها يقاتلون بقلب واحد وإرادة واحدة ، وخلال أيام الخندق هذه ما بين خمسة عشرة وعشرين يوماً ، لم يطمئن لفرد واحد من أفراد الجماعة جنب ، فهم كلهم يقاتلون أو يقومون بما يخدم إخوانهم فى ساعة المحنة ، والقلوب اليقظة تفتح مغاليق الذهن ، فكل فرد

من أفراد هذه الأمة يبتكر وينفذ ، ورسول الله ضمير هذه الأمة الصاحى وقلبها اليقظ يقوم وسطها ويرعاها ويوجهها ، وعندما نجح الأعداء فى اجتذاب بنى قريظة إلى جانبهم ، وأعلنوا الحرب على المسلمين أسرع رسول الله فأرسل محمداً ابن مسلمة فى قوة حراسة يقف عند رأس الطريق من منازل بنى قريظة إلى وسط المدينة ، فما استطاعوا حراكاً حتى انهزم الأعداء وانصرفوا ، وهنا تقدم الرسول بعد ساعات قلائل بمن معه من المسلمين للنظر فى أمر أولئك القرظيين الذين كسروا العهد وخانوا الأمة التى هم حلفاؤها ، وكان ما كان من عقابهم على ما صنعوا .

ذلك أن مدار العمل كله فى أمة الإسلام هو القلب أو الضمير ، وليس المراد بذلك ضمير كل مسلم على حدة ، بل المقصود قلب الأمة كلها وضميرها جميعاً ، فإن قوة أمة الإسلام لا تنجلى إلا إذا كان المسلمون جميعاً قلباً واحداً وضميراً واحداً ، فلا خيانة ولا غدر ولا أنانية ، لأن هذه الأمة هى أمة التوحيد وأمة الوحدة ، والقلب اليقظ الصاحى هو قوة المسلمين ، ولا يصح أمرهم أبداً إلا إذا كانوا جميعاً قلباً واحداً ، ففكرة الخندق كما رأينا فكرة بسيطة ، وكل ما فعله الخندق هو أنه حال بين الكفار واقتحام المدينة ، وكان الكفار قادرين أن يقتحموا الخندق . ولكن القوة الحقيقية كانت فى تلك الأمة الإسلامية الصاحية وراء الخندق ، فخلال أيام الخندق ليس لدينا خبر عن مسلم واحد فكر فى نفسه أو اتجه إلى ما فيه خيره وحده ، وإنما كانت الأمة كلها ضميراً واحداً وقلباً واحداً فاستحقت نصر الله ، وأمر أمة الإسلام كلها لا يصلح إلا إذا تصرف كل مسلم على أنه عضو فى أمة واحدة ، وهذا شىء لا يكون إلا إذا كان قلب كل مؤمن واعياً له مدركاً إياه .

وكل شىء فى الإسلام رهين بما تقول القلوب ، فالإيمان إيمان القلوب لا إيمان الشفاه ، والأعمال فى الإسلام قائمة على النيات ، فالنية هى ما ينعقد

عليه القلب ، فأنت تنوى الصلاة والصيام والحج ، والحساب يكون على النيات قبل الأفعال ، لأن الإسلام دين قلوب ، وأمته أمة قلوب ، وهذا هو السر الذى يغيب عن الكثيرين فيحسبون أنفسهم مؤمنين صادقين دون أن يذكروا أن الإسلام الحق هو يقظة الضمير ، هو أن تكون واعياً إلى أن نجاح أمة الإسلام وعدم نجاحها متوقف على تقوى القلوب ، وعلى يقظة الضمير ، فإن أمة الإسلام واحدة ، ولا يوفق مسلم وحده أبداً ، فلابد أن تكون قلوبنا نحن المسلمين واحدة مجتمعة على الخير ، فإذا كنا كذلك نجحنا كما نجحنا فى بدر والخندق ، وفى كل ما فعلناه أيام الرسول الأكرم وخلفائه الأولين ، وما أيسر النجاح للمؤمن الذى يريده ، فما عليه إلا أن يذكر دائماً أنه جندى فى جيش الإسلام الذى يخوض معركة الخير مسلحاً بخلاص النية وسلامة القلوب ، وما أتى الإسلام والمسلمون إلا من ناحية التفرق ونسيان وحدة القلوب ، ويقظة الضمير ، ولقد قال الحارث بن أسد المحاسبى « إن ميزان المؤمن قلبه » وهو يريد ضميره .

ودعا إلى وحدة القلوب ، لأن الله عندما أرسل محمداً برسالة الحق أراد أن يسير البشر فى طريق الخير ، والقرآن كلام الله فى أيدينا وصدورنا ، وهو ضميرنا ومرشدنا إلى كل خير ، ففى القرآن مفاتيح العلم كله ، والعلم مفتاح كل عمل صالح ، فلو أن كل مسلم على حده أدرك هذه الحقيقة وتصرف على مقتضاها لوجدنا أنفسنا أعلم الناس وأصلح الناس عملاً وأنجح الناس وأغنى الناس ، هذا إلى رضا الله عنا وما ادخره لنا من جميل الثواب ، وأنت عندما تقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله فأنت تدخل بهذا فى جماعة الخير والإيمان ، وعليك بعد ذلك أن تحافظ على يقظة ضميرك وتتصرف على أنك واحد من أمة واحدة هى أمة الخير ، فلن يصح لك عمل إلا إذا صدرت فيه عن قلب سليم ، أى نية حسنة خالصة لوجه الله وصالح المؤمنين ، ولقد كان قتيبة بن مسلم يقول لرجاله قبل

كل معركة يـا أمة محمد . . أمامكم أمـة كافرة لا تجد طريقهـا إلى الله فافتحوا لها الطريق بـالسيوف ، وأيما واحد من هـؤلاء ينطق بالشهادة فهـو منكم وأخوكم ، فارفعوا السيف عنه ، قولوا لا إله إلا الله فينصركم الله على اسم الله ، ثم يكر على أعداء الله فيجعلهم بدداً ، وفى طريقـه إلى سمر قند مر بقرية فـوجد أهلها جميعاً ينتظرونـه خارجها ، وقـال له رئيسهم : هل أنتم رجال قتيبـة ؟ قال : نعم نحن قوم قتيبة . وأنا قتيبة . قال الـرجل : فنحن معك ونريد أن نقاتل معك ، فقال قتيبة ومنـذ متى أنتم مسلمون ؟ قال : من سـاعة سمعنا بعبـورك النهر وأنك فى الطريق إلينا ، قال قتيبة فاغتسلوا فى هذا النهر وصلوا معنا ، ففعلوا وسار منهم أكثر من خمسة آلاف فى جيش قتيبة ، فكانوا خير المجاهدين فى سبيل الله .

ما أكثر ما نسأل أنفسنا عن السبب فى كثرة مـا أصابنا منذ قرون ، فهذا هو السبب : نوم القلوب ، فنحن ننسى دائماً أن الإسلام قلب وضمير ، وأن ضمير أمة الإسـلام كلها واحد . أو ينبغى أن يكـون واحداً ، فإذا كـان واحداً تفتحت السبل أمام أمة الإسـلام ، ونحن عندما نقول تقوى القلوب فـالمراد بذلك خشية القلـوب لله سبحـانه عـن حب وخوف معـاً ، فإن الحب الصـادق لا يخلـو من الخوف أبداً ، فنحن نتقى الله لأننا نحبه ولا نريـد أن نفقد هذا الحب ، وقد كان عقبة بن نـافع يغتسل ويصلى ركعتين لله قبل كل معـركة ، وكان يقـول : اللهم إننى أحبك وأخشاك . فارزقنى المزيد من حبك حتى لا يغلبنى خوفى منك ، ثم يخوض المعـركة ويكسب النصر فيعـود ويصلى ركعتين ويقـول : اللهم زدنى من حبك وتقـواك . فكـان أعـداؤه الذيـن انتصر عليهم يقبلون نحـوه ويـدخلـون الإسلام ، وينضم الكثيرون منهم إلى جيشه ، وقد رزقه الله لهذا من النصر مارزقه القليلون .

لنذكر دائما أن الإسلام دين قلوب ، وأن قلوبنـا إذا كانت صاحية فلاخوف علينا ولا نحن نحـزن إن شاء الله ، إن طريق السلامـة الوحيد لأمة الإسـلام هو

طريق القلوب السليمة والضمائر الحية اليقظة التى تشعر دائماً أنها أعضاء فى أمة واحدة ، أمة تحب الله وتخشاه وتتقيه وتلتف حوله وتعتصم بحبله لتصل إلى النجاة ، وتكون من أولئك الذين عناهم الله سبحانه بقوله :

﴿ وَسِيقَ الذِين اتَّقوا ربهم إلى الجنة زُمراً . حتى إذا جاءُوها وفُتِحت أبوابُها وقال لهُم خزنتُها سلامٌ عليكمْ طِبتم فادخلوها خالِدِينَ وقالُوا الحمد لله الذى صَدَقنا وعده وأورثنا الأرض نَتبَوأ من الجَنَّة حيثُ نشاءُ فنِعم أجرُ العامِلِين . وترَى الملائِكة حافين من حول العرشِ يسبحُون بِحمد ربهِم وقُضِى بينهم بِالحق وقيل الحمد لله ربِ العالمين ﴾ .

[الزمر ٣٩/ ٧٣ ـ ٧٥].

أرأيت كيف جعل الله للمؤمنين الصادقين الأرض والجنة جميعاً ؟ ﴿ وأورثَنا الأرضَ نتبَوأ منِ الجنةِ حيثُ نَشاءَ ﴾ أجل فهذا جزاء المؤمن صادق القلب حىّ الضمير . .

***